مقابلة الاحسان بالاساءة

كأني بالقارىء وقد وقع نظرهُ على هذا العنوان يرفع طرفهُ نحو السماء وينادي العجب من اعاليها ثم يخفضهُ الى الغبراء ويستدعي الاستغراب من اعماقها ومهاويها

يقول من هذا الذي يريد ان يقلب نظام الكون ويبدّل سنّة الخلق. وهذه الحجارة الكريمة على قدر صفاء الوانها تشتدّ رغبة الناس فيها فيتغالون في اثمانها ويتخذون لها اجياد الحسان موطناً وبنان الغيد الملاح مقرًّا وصدور الغواني مقاماً فتخرج من ظلمة استتارها في معادنها الى اجل مناصّ الظهور والسناء فتكون حلي نساء الاغنياء بل حلي حرم الوزراء وكرائمهم بل حلي ربّات التاج

فان كان هذا اثر الصفاء في الحجارة الكريمة أفلا يكون الاخلاص وهو صفاء القلب من آثار المادّة والمخادعة اعلى قدرًا واعلى ثمناً في عيون الناس من تلك الجواهر التي لا تقاسي في الاحتفاظ بنقاوتها عذاباً . ولا يسومها الاستمرار على صفائها خسراناً ولا يجرّ عليها وبالاً . واما أولو الاخلاص في الناس فيولد لهم ذلك الاخلاص اعداء وخصوماً يناصبونهم العداوة ويضرمون عليهم من الحسد نيراناً ويطلقون ضمائرهم من قيود العدل للاشتغال في تدبير الحيل المودية بحياة من كمّلوا هامة بلادهم باكليل المجد وكتبوا اسمها في صدر جريدة العظمة والفخر حتى يكون مثلهم مثل من ولد ولدًا ونشّأهُ وثقّفهُ فلما بلغ مبلغ الرجال عدا على والده فقتلهُ

وبما ان مثل هذا الانقلاب لا يكاد يصدّق نروي لك حادثة سنمار التي اشار اليها الشاعر بقولهِ

جزى بنوهُ ابا الغيلان عن صغرٍ وحسن فعلٍ كما يجزى سنمارُ

وسنمار هذا فيما قيل بنّاء روميّ بنى للنعمان بن امرىء القيس اللخميّ بظاهر الكوفة قصرًا وهو الخورنق المشهور فاجاد في صناعتهِ فلما فرغ من بنائهِ القاهُ من اعلاهُ لئلاّ يبني مثلهُ لغيرهِ فمات شهيد ما عند النعمان من الأثرة وضعف النظر فكانت فعلتهُ هذه ادلّ دليل على لؤم طبعهِ واصدق شاهد على وحشية خلقهِ استغفر الله ان الوحوش لتتكارم عن الهبوط الى حضيض هذا الخلق الرذل

اني رأيت الأُسدَ احسن مبدا من جنس هذا العالم المتمرّدِ
الناس تقتل كل يوم بعضها والاسد تقتلُ غيرها اذ تعتدي

فقتل سنمار مصاب على صناعة البناء بل مصابٌ على العدل وكرم الطباع . ولكن اين هو من

المصاب بقتل القائم بالدعوة العباسية حجر الارض أبي مسلم الخراساني الذي قال فيهِ المأمون وقد ذكر عندهُ "اجلُّ ملوك الارض ثلاثة وهم الذين قاموا بثقل الدول الاسكندر وأردشير وابو مسلم الخراساني" . فهذا الداهية الذي مدحهُ المأمون مدحاً يضحي لعظمتهِ كل مدح هو الذي هدم صرح الدولة الاموية وبنى على انقاضهِ قصر الدولة العباسية فنقل عرشاً ونصب عرشاً وامات دولةً واحيا دولةً . وهو الذي كان السفَّاح اول الخلفاء العبَّاسيين يعظمهُ لما صنعهُ ودبَّرهُ . كانت خاتمة امرهِ ان السفَّاح توفي بعد ان ملك نحو من اربع سنين وتولَّى الخلافة بعدهُ اخوهُ ابو جعفر المنصور وهو بمكة يوم الاحد لثلاث عشرة ليلةً خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦ للهجرة . فتغيَّر على ابي مسلم لاسباب وقضايا صدرت منهُ فلم يشفع فيهِ عند ابي جعفر المنصور انهُ واضح اسّ الدولة العباسية وقصَّر ما أولى العباسيين من الصنائع ان يتباع لهُ ما يستريبهِ ذنبهُ عن نظر المنصور فلا يتغير عليهِ قلبهُ فعزم على قتلهِ وبقي حائرًا بين الاستبداد برأيهِ في امرهِ والاستشارة فيهِ فشدَّدت الاستشارة عزيمتهُ والهبت نار مخطهِ ولاغرو فان المزايا تخلق لاصحابها اعداء ممن يحبون ان يُتخمّوا في سلكهم ويدرجوا في عدادهم . وليس لهم من افعالهم ما يبلغهم هذه الامنية فاذا رأوا باب التحريش منفتحاً دبوا اليهم منهُ بكلام من السعاية الدغ من حمات العقارب واسم من نثنات الافاعي فيعضد السعاية والاغراء ما في نفوس الكبراء من الحفائظ فيفضي الامر الى مكافأة المخلصين بنقف الاعناق كما جرى مع ابي مسلم المشار اليهِ واليك لمعةً من كلام ابن خلكان في مقتل ابي مسلم تؤيد لك ما قلتهُ

" قال المنصور يوماً لمسلم بن قتيبة ما ترى في امر أبي مسلم قال لو كان فينا آلهةٌ الاَّ الله لفسدتا . فقال حسبك يا ابن قتيبة لقد اودعتها اذناً واعية . ولم يزل المنصور يخدعهُ حتى احضرهُ اليهِ وكان المنصور يومئذٍ برومية المدائن التي بناها كسرى فلما دخل على المنصور رحَّب بهِ ثم امرهُ بالانصراف الى مخيَّمهِ وانتظر المنصور فيهِ الفُرَص والغوائل . ثم ان أبا مسلم ركب اليهِ مرارًا فأظهر لهُ التجني ثم جاءهُ يوماً فقيل لهُ يتوضَّأ للصلاة فقعد تحت الرواق . ورتب المنصور لهُ جماعة يقفون وراء السرير الذي خلف ابي مسلم فاذا عاتبهُ لا يظهرون . واذا ضرب يداً على يدٍ ظهروا وضربوا عنقهُ . ثم جلس المنصور ودخل عليهِ ابو مسلم فسلَّم فردَّ عليهِ واذن لهُ في الجلوس وحادثهُ ثم عاتبهُ وقال فعلتَ وفعلتَ . فقال ابو مسلم أتقول هذا لي بعد سعيي واجتهادي وما كان مني . فقال لهُ يا ابن الخبيثة انما فعلت ذلك بجدِّنا وبحظنا ولو كان مكانك أمة سوداء لعملت عملك . ألستَ الكاتب اليَّ تبدأ بنفسك قبلي ألستَ الكاتب تخطب أمَّتي آسية وتزعم انك ابن سليط بن عبد الله بن العبَّاس لقد ارتقيتَ لا أمَّ لك مرتقى صعباً . فأخذ ابو مسلم

بيده يعركها ويقبّلها ويعتذر اليه فقال له المنصور وهو آخر كلامه قتلني الله ان لم اقتلك . ثم صفّق باحدى يديه على الاخرى فخرج اليه القوم وخبطوه بسيوفهم والمنصور يصيح "اضربوه قطع الله ايديكم" . وكان ابو مسلم قد قال عند اول ضربة "استبقني يا امير المؤمنين لعدوك" قال لا ابقاني الله ابداً واي عدوّ اعدى منك . ولما قتله ادرجه في بساط فدخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور ما تقول في امر ابي مسلم فقال يا امير المؤمنين ان كنت اخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل. فقال المنصور وفّقك الله ها هو في البساط فلما نظر اليه قتيلاً قال يا امير المؤمنين عدّ هذا اليوم اوّل ايام خلافتك فأنشد المنصور

فالقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافرُ

ثم اقبل المنصور على من حضره وابو مسلم طريح بين يديه وأنشد

زعمتَ ان الدّين لا يُقتضى فاستوفِ بالكيل ابا مجرمِ
اشرب بكاسٍ كنت تسقي بها امرّ في الحلق من العلقمِ

وكان مقتله برومية المدائن وهي بُليدة من الأنبار على دجلة بالجانب الشرقي ممدودة من مدائن كسرى

فيا ليت شعري ألم يكن الملك الذي نصب ابو مسلم عرشه للعبّاسيين باجتهاده وسعيه يصلح ان يكون شفيعاً فيه عند ابي جعفر المنصور ثاني خلفاء دولته قامت على سعي ابي مسلم . فما مَثَلُه مع المنصور الاّ مَثَل الشمعة تحرق نفسها لتضيء على الناس سيّما وان الاحوال لم تكن لتطمع أبا مسلم بالملك لما هو معهود من شروط الخلافة . فكان الاحرى بملك من مثل المنصور ان تربأ به مروّته وترفّع به نفسه عن التلطخ بدم من لبس التاج بثمرة اجتهاده خصوصاً وفي امكانه ان يعزله ويستبقيه محجوراً عليه في داره ويكتفي بذلك عقوبة له على ما بدا منه مما لم يُطق المنصور الصبر عليه . فهذا بسمارك الذي على يده اجتمع شمل الالمان وباجتهاده قامت العاهلية الالمانية لما ثقل بقاؤه في منصبه على غليوم الثالث عزله عنه ولم يمسّه بسوء فاستمرّ بسمارك الشهير معتزلاً اشغال الدولة الالمانية الى ان رافاه اجله . نشتّان بين صنيع المنصور وصنيع غليوم . نعم قُتل ابو مسلم الخراساني وشفى ابو جعفر قلبه بقتله وتشفّى به حسّاد فضله واطلق الشاعر السفيه ابو دلامة لسانه في هجوه وكناه ابا مجرم . ثم مات ابو جعفر بنحو من عشرين سنة بعد ان اغتال مؤسس ملك العباسيين والقائم بدعوتهم ولكن التاريخ لم يمُت بل هو حيّ باقٍ ابد الدهر ينتصف لأبي مسلم من قابل له تلك اليد البيضاء يدٍ سوداء ويثني عليه ويذم المنصور ابا جعفر على انه يخطّئ ابا مسلم في تماديه مع هواه ونسيانه ان الملك لا يحتمل

ان يرى لاحدٍ في مملكتهِ كرامةً غير ما يتولد من النفاتهِ . وبفتح في وجوه بقايا الامويين سبيل الشماتة بأبي مسلم ويبرّد قلوبهم حتى يدعوا بطول عمر المنصور بما اغتال من عاون الايام على ابادة دولتهم واركاد ريحهم

ومن ينتظم في سلك ابي مسلم تيموستكل القائد الأثيني الشهير الذي ردّ غارة الفرس عن بلاد اليونان وذهب بمجد الانتصار يوم سلامين . فهذا كان مصيرهُ الى ان انكفأ عليهِ بالعدوان اولئك الذين بفضل نجدتهِ وأصالة رأيهِ خرجوا من شدوق الضراغم وافلتوا من براثن الشجاعم واوقدوا لهُ نار الاضطهاد وطردوهُ من البلاد حتى اضطرّ (ويا لفضيعة الجميل عند اليونان) الى ان يعوذ بملك عدوّهم من اصفيائهِ وابناء وطنهِ وعنقاء سيفهِ الاثينيين . واليك ملخص قصّة تأثرها عن امبروسيوس رنديفيل تعرف بمطالعتها سعة فضل تيموستكل على الاثينيين وكرم سجيتهِ ولؤم اخلاقهم وخبث طينتهم . "لما اجتاز الفرس واقتربوا من اثينا واجتاحوا تلك النواحي واحرقوا الديار وسفحوا الدماء كان تيموستكل هذا القائد الحامل رابة الحكمة وابادة الحياة في سبيل الوطن قد اعدّ اسطولاً عظيماً غير ان الاثينيين لم تكن لقاعدة ملكهم اسوار تصدّ هجمات الفرس ففزعوا الى دلفس يستطلعون الغيب فهبط عليهِ الوحي بهذا الجواب " لا يستطيع الاثينيون الى النجاة سبيلاً الاّ باسوار من خشب" فعند ذلك قال لهم ذلك الداهية تيموستكل تفادياً من ان يشغل فريقاً من جيوشهِ في الدفاع عن المدينة بما لاغناء بهِ ان الاله يأمر بهذا الكلام أن يخلوا منازلهم ويدخلوا في بوارج الاسطول فاقنعهم تفسير هذا الداهية وهجروا المدينة وانزلوا الشيوخ والنساء والاطفال في جزيرة سلامين واما المقاتلة فلم يبرحوا البوارج التي كان قد جمع تيموستكل في بوغاز سلامين وكان الفرس خلال هذه البرهة قد دخلوا اثينا فألفوها خالية ليس فيها ديّار فسلطوا عليها النار حتى احالتها رماداً لم يبقَ فيها غير هيكل دلفس . زعم المؤرخون ان ذلك الاله انتصر لمقدسهِ فقتل جماعة من الفرس بحجارة كانت تنقلع من الجبل ودحر الباقين وقد ذعروا من هول ما رأوا اما القادة اليونان الذين جمعهم الاسطول فعقدوا مجلساً وارتأى جمهورهم ان يذهبوا الى برزخ كورنتوس حيث كان الجيوش البرية قد نصبوا مضاربهم اما تيموستكل فخالف رأيهم اذ تبين ان في مغادرة بوغاز سلامين الذي يقيد الاسطول الفارسي ولا يمكنهُ من الهجوم بجملتهِ على البوارج اليونانية خطراً مبيناً وقد كبر ذلك عليهم حتى ان اريباد الاسبرطي رفع عصاهُ عليهِ فقال لهُ تيموستكل " اضرب ولكن اسمع" فعند ما القوّاد رأوا ما رأوا من اطمئنانهِ واعتدادهِ صاخوا سمعاً لكل براهينهِ فاستحسنوا رأيهُ الذي كانت بهِ نجاة بلاد اليونان

واذ خشي أن يطرأ ما يغيّر عزيمتهم توسّل بحيلة حربية لطيفة ليمنع الاسطول ان يفارق جزيرة سلاميز فبعث الى كسرى رسولاً يقول لهُ ان اليونان ملكهم الخوف فهم يحاولون الفرار تحت ظل الليل فاما كسرى فلم يدرِ ان ذلك خدعة فأمر للحال ان ترصد الطرق والمعابر واعدّ هو نفسهُ هزيمتهُ ولم يبرح اليونان الموقع الذي تخيّرهُ لهم تيموستكل . وصبيحة الغد استعدَّ الفرس ان يصلوا نار الحرب على نظر كسرى فأمر وهو موقن بالنصر ان ينصب لهُ عرش فاخر على قنة جبل اجاليز ليتسنى لهُ ان يرى حركات الاسطولين ففعلوا وفيما كان يرى ان الفرس قد اقتربوا وان اليونان طفقوا يرجعون القهقرى حتى يجرّوا العدوّ الى حيث يتعذّر عليهِ ان يستعمل ما لديهِ من القوات اذا بتيموستكل انتهز الفرصة فحطم بوارج الفرس الراسية في ذلك البوغاز فدارت عليهم الدائرة

واما كسرى الذي كان يعلل نفسهُ ان يشهد الظفر بعينهِ فقد كذب فألهُ وخاب ظنهُ فرأى وهو على ذلك العرش المزيمة حظّ جيشهِ فجدَّ في الفرار وقد اجتاز على قارب صيّاد هذا الملك الذي كانت سفائنهُ تغشي وجه اليمّ

وقد استبدَّ بمجد هذا اليوم المشهور تيموستكل فان قوّاد اليونان على ماروى الاخباريّون حين دعوا ليبينوا لايهم النصيب الاوفى والحظ الاوفر في الانتصار فاجتمعت كلمتهم على ان يقول كلٌّ من أولئك القوّاد "انهُ هو الاول وان تيموستكل هو الثاني فقضى لهُ الشعب الاثيني بمجد الانتصار دون سائر القوّاد . وعتب ان اشتغل اهل اثينا رجالهم ونساؤهم واحداثهم في بناء السور انكروا فضل تيموستكل وطردوهُ من البلاد فالتجأ الى ملك الفرس فاكرم وفادتهُ واحسن ضيافتهُ ورجا ان يُقيّد بخدمتهِ وأدب لهُ يوم وفودهِ عليهِ مأدبة فاخرة ويقال انهُ صاح تلك الليلة مرارًا "قد حصلت على تيموستكل الاثيني" ثم ارادهُ على محاربة وطنهِ فتجرع كاس سم مستجيًا الموت والامانة على الحياة والخيانة

ومن ساءت عواقبهُ ولم تنفع بهِ أياديهِ وصنائعهُ ملتياد الاثيني الذي تولى قيادة الجيش وقام بتدبير الحرب يوم ماراثون الشهير لليونان على الفرس وهزم داريوس واثخن القتل في عساكرهِ والصق بهِ من عار المزيمة مالا يمحوهُ تطاول الاعصار فصوّرهُ اليونان في مقدمة القادة وهو يحرض الجيوش في تلك المعركة الهائلة تخليدًا لذكرى مالهُ من الشجاعة والنجدة . فمن خلد من يدور ان هذا البطل لزلة خفيفة ارتكبها في جزيرة باوس ينهض عليهِ الاوغاد الحساد ويطلبون ان يقضى عليهِ بالهلاك ويلقى في اخدود يطرح فيهِ اهل الجرائم الفظيعة فغضّ الاثينيون ابصارهم بل حوّلوها عن ذلك العمود الذي مثلوا عليهِ ملتياد رئيساً لقوّادهم محرضاً

لجنودهم في القتال رتناسوا ماجرى لهم على يدهِ من الظفر وحكموا بالقتل على ذلك الذي جرح جراحات بالغة وهو يحارب عن وطنهِ اللهم الاَّ ان جماعة من ابناء وطنهِ صاحوا طالبين ان يبدَّل الحكم الذي أبرم بموت ملتياد مخلص اثينا والديار اليونانية بغرامة مبلغ قدرهُ ٢٧٠٠٠٠ فرنك. ولما لم يكن في ملك ملتياد مايوازي هذا المبلغ الطائل طرحوهُ سجناً مظلماً وما لبثوا ان أزهقوا روح مخلصهم ومخلص بلادهم

وهنا محل العبرة ومقام التعجب الا وان ملتياد الذي اذلَّ بصولتهِ داريوس على كثرة جيوشهِ قد عجز ان يدفع عنهُ افتراء المفترين وأعيا ان يردَّ السنة الحساد المتملقين واللئام المتزلفين فيا لله من اهل اللؤم والخبث الذين بكلمة توافق هوى ملك يمحون مآثر العظماء الذين عزَّزوا ملكهُ ووطدوا دعائمهُ وخاضوا الغمرات في الذبِّ عن مملكتهِ وتلقوا الحراب والسيوف ليبقى مطمئناً على اريكة ملكهِ ثم لا يجتزئون بمحوِ مفاخرهم بل يصوّرونهم لهفوةٍ هفوها خوَّانا واعداء كما فعلوا بمن صرحوا انهُ مخلص اثينا والديار اليونانية قاطبة فكانما في كلام السعاية والاختلاق مغناطيس يجذب القلوب الى اصحابها وكهربائية توغر قلوب ذوي السلطان على من نالوا عندهم الحظوة ذلك بما تنقل اليها من الشحناء والضغينة بالالفاظ المحفظة والعبارات المؤثلة

فان لم تكتفِ بمارويتهُ لك من اخبار من أُنزل البلاء وقذف عليهم جمر الاضطهاد عقب ان قلَّدوا بلادهم وامتهم قلائد الفضل بل غبَّ ان منوا عليها بابقائها في صحيفة الوجود وحطموا سيوف مناوئها وردّوا محاربيها على اعقابهم ناكصين فاعيد على سمعك قصص من فخَّر على اهل الدنيا انهار الثروة واباحهم المعادن الثمينة والجواهر الكريمة كريستوف كولمب الذي بعثتهُ حدة ذهنهِ للحكم بان وراء هذا البحر بلاداً أخرى واسعة علَّ همتهِ ان يخوض لجج المحيط ويقامي هياج الخضم وهياج الرفاق فابحر ثالث يوم من شهر آب (اوغسطس) سنة ١٤٩٢ واستمرَّ الى ١٣ ت ١ (اكتوبر) من تلك السنة حتى رأى البر ووضع يدهُ على جزيرة سلفادور ونصب فيها الصليب فصار هذا الجنديُّ التجاني عن الكبر بعد معاهداتهِ مع الملوك امير البحر المحيط وحاكم الجزائر العام وارض الهنود فهذا بعد ان عاد الى اسبانيا سنة ١٤٩٣ ودخل برشلونة دهشت الديار الاسبانيولية لاستقبال هذا الفريد همة المنقطع النظير ذكاء ونال من الحظوة ما هو خليقٌ بمثلهِ ثم انثنى آئباً الى اميركا وواصل الاكتشاف والاستعمار وتوطين الجالية ولم ينتأ يلاقي المشاق ويكابد الشدائد وقد شقَّ عليهِ ما فعل اصحابهُ واتباعهُ من الكبائر فناصبهم وضادَّهم فاختلقوا على هذا الفاضل اموراً ورفعوا بها شكوى فقضت عليهِ الحال ان يقاوم ما اصاب اولئك الماكرون من النفوذ الذي كاد يزعزع دعائم عملهِ . وقصارى الكلام ان كولمب

ذهب ضحية اصول الدسائس السياسية. ألا وقد قبض عليهِ وبعث الى اسبانيا ليحاكم ويعدم اللتيا والتي تبرأ فاطلق سراحهُ وحظر عليهِ ان يدخل اسبانيولا واراد ان تنقل القابهُ الى ابنهِ فلم يأذن لهُ فرديناند في ذلك ولما توفي طلب ان تجعل القيود معهُ في التابوت وقد دفن عند الكبوشيين بقالادُوليد ثم نقلت بقاياهُ الى اشبيلية

ناشدتك الله قل لي ألا يجدر بمن يشتكي البهِ على مثل هذا الجدير ان يتعت بانهُ نسيج وحدهِ وفريد عهدهِ ويتيمة دهرهِ وأعجوبة عصرهِ افلا يجدر بهِ ان يطيل النظر في الامر وان يجيل طرف البصيرة في البحث عن احوال المشتكين واغراضهم وان ينقب عن احوال الحوادث وان يسبر التهم بمعيار الفطنة والانتباه . بلى ان هذا لهو الواجب الذي لا يجوز التخلف عنهُ حتى اذا ثبتت التهمة وصحت الدعوى وازن بين حسناتهِ وسيئاتهِ وعاملهُ بمقتضى قول الشاعر

واذا الحبيب اتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنهُ بالفٍ شفيعِ

واذا شئت المزيد من الامثلة احلتك على كتب التاريخ فان لم تجد ثمةَ ما يروي غليلك ويشبع نهمك احلتك على مراقبة احوال العصر حيث تجد المخلص على تفوقهِ بالاعمال وعلو مرتبتهِ في اصالة الرأي يُنبَذ لاختلاقةٍ يختلقها عليهِ مفترٍ حسود ويعزل من منصبهِ ثم لا يكتفى لهُ بذلك بل يُنهَش بانياب الغيبة ويبذل الجهد في اغلاق ابواب التقدم دون فضلهِ . ويُسدَل على جمال اهليتهِ سجاف مغشًّى بالوشايات والمفتريات وكأنما في مثل هذه الأزمة قد وقع القائل " غبن الحرُّ لعمري غُبنا " بل كأنما صبَّت هذه البلية على رأس القائل

سألت احبتي ما كان ذنبي اجابوني واحشائي تذوبُ
اذا كان المحبُّ قليل حظٍّ فما حسناتهُ الاَّ ذنوبُ

واعلم ان كلاً ممن تشدَّد على امثال من مرَّبك ذكرهم لو انتزع بالوازع الباطن عن سفك دم البريء ولو ازَّجر عن مقابلة المحسن بالاساءة ما نزل بهؤلاء مثل ما نزل بهم من القتل او الاضطهاد . وكفى بهذه المقالة تذكيرًا وتحذيرًا لكل ذي يدٍ من الانقياد لما يزخرفهُ الحساد الصوَّاغون الاولى يجعلون الحية قبةً ويسترون بالفاظ المداهنة ما لاهل الفضل من الصنائع الوافرة والمآثر الباهرة في جنب الوطن والمملكة

سعيد الخوري الشرتوني